ـ رمى بنفسه من الشباك!

العيون تدقّني والضابط يهزّ عصاه متوعداً. وصل سمعي صراخٌ وهياجٌ اشتعلا في رأسي. التهب صدغاي وأنا أبحلق مبهوتاً في فراغ الهوة. خُيِّل إليَّ أنني موجود هنا بالمصادفة، ولا بد أن أرحل من دائرة الزعيق هذه.

ـ استخدمنا الكابح اليدوي لايقاف القطار!

أحسستُ بدفعة قوية؛ كان الضابط ينهرني، ويدفعني. جرّني أحدُ المدنيين بصلافة، فأيقنتُ أنه من رجال الاستخبارات العسكرية الذين توافدوا صائحين:

ـ ارموه خارجاً وراء كلبه!

فُتح بابُ العربة، ورُكِلتُ إلى الفضاء. كان الظلام قدّامي، والقطار ورائي، وبندقيتي فوقي، وطنينٌ يكتنف دماغي المشتّت. تحركَ القطارُ مع صفرته السوداوية، وعيون غريبة، متشفّية، منفعلة، ممسوسة تتفحصني خلل زجاج نوافذ العربات.

جرجرتُ رجلي. تلمستُ بندقيتي؛ علّقتُها على كتفي الذي وخزني بعدما ارتضّ ظهري. أمر واحد وحيد دفعني إلى العودة وراءً: هو البحث عن الهارب واعتقاله وإلا فسألاقي مصيره. دهمني خوفٌ، وحسبت كافة الاحتمالات، وأنا أدفع الظلام عني.

*

مضت ساعة وأنا أمشي محاذياً السكةَ. هناك، وجدتُه مرمياً، متكوِّراً ككيس، كأملٍ يبزغ بعد صراع خاسر. ركضتُ صوبه، قلّبْتُه. كان الدم ينزف من أنفه، أمَرْتُهُ:

ـ قِفْ! قُمْ أيها الملعون!

لم يجب، بل رماني بنظرة موغلة في البعد، ترجّعها عينان دمويتان دامعتان. كان الألم الذي يعانيه أكبر مما يتحمّل. سمعته يردِّد موجوعاً، كابتاً رغبةً في الصراخ:

ـ ساقي!

جسستُ ساقيه، كانت اليمنى مكسورة، تبللت يداي بدمائه، وعظمةُ ساقه نتأتْ من بطّة رجله. همس:

ـ لن تتركني هنا، الموت أرحم!

كززتُ على أسناني دون تفكير:

ـ لا... أبداً، أنت ميت في الحالتين!

رفعتُه على ظهري، ومشيتُ محاولاً تبيُّنَ طريقي في العتمة الصلدة. وكنت أقعد أحياناً كي ألتقط أنفاسي. هل سأقضي الليل وأنا أمشي حاملاً مصيبتي؟ وأين أقرب محطة، أو قرية، أو مدينة، أو وحدة عسكرية، أو كوخ رعاة؟ لا شيء هنا سوى الليل والصحراء والصمت والهلع. ثم طرقتْ دماغي فكرةٌ جهنمية، وهي أنْ ألْبدَ قرب السكة وأعترضَ القطار القادم. لبثتُ أكثر من ساعتين قبل أن أسمع هديراً قادماً، وزمجرَة آلاتٍ رتيبةٍ تدقّ جدران هوة الظلام، ورفيقَ دربي يئنّ ويتلوى على الأرض متكوِّراً على نفسه كطفل. أشرعتُ بندقيتي. لاحت أنوارُ القطار عن بُعْدٍ، كهالةٍ نورانية يحملها ملاكُ رحمة. دنا القطار صاكّاً أسماعي بهديره. حسبتُ المسافة قبل اقترابه مني تماماً، وأطلقتُ رشقةً طويلة من رشاشي في الهواء؛ ثم شملني القطار بجرمه الهائل مدوِّراً العتمة. أطلقتُ رشقة ثانية غير أنه مضى في سبيله جارفاً معه الهواءَ والليلَ والأصوات ومحاولتي الأخيرة، مخلِّفاً الصمت والقفر وطنيناً في أذنيّ؛ ولعناتي وراءه تركض كولد يهرول وراء أبٍ لامبالٍ. وحدي دائماً: هكذا هي أيامي؛ وفكرتُ بأن هذا عزاء جيّد ومناسب. رميتُ الجريح على ظهري كقدري ومشيت، وبندقيتي تتدلى على صدري، تضربه برفق مع خطواتي التائهة لتذكرني بضياعي.

لم يكن ما بدر من ضجيج وضوء، بعد مضيّ وقتٍ غابرٍ على ضراوة بحثي عن ملمح خلاصي، محضَ حلمٍ أو وسواس بل كان أمراً واقعاً، حينما انهرتُ على الأرض وأسيري، وفوقنا جسمٌ غريب، يطوِّقنا بدائرة ضوئية: طائرة هليكوبتر تحلّق، ترقبنا، وتحبسنا في دائرة نور لاهب، ومشاعري مشوشة بين استغرابي وفرحي بنهاية متاهتي. ركدنا على الرمل محنييْن، تحت رحمة الشعاع المحدد، ثم دَنَتْ بعد دقائق عنيدةٍ سيارةٌ تمتشق طرقَ الليل بشريطَيْ ضوئها الباهريْن. توقفتْ عندنا، ترجّل منها ضابط وجنود. وقفتُ وأديتُ التحيةَ للضابط، لكنه عاجلني بصفعة، انهال بعدها الجنودُ عليّ بأعقاب البنادق، والجريح يُداس ويُركل، والهليكوبتر لمّت نورها وذابت تكتكاتها في طيّاتِ سحبٍ تمس نجوماً تتمزق، والضابط يرمي كلماته في الفضاء العاري الحديدي، منفعلاً:

ـ جنود أم قطاع طرق... يا كلاب يا أبناء الكلبة؟!

قبضتْ عليّ الأيدي. ألبستني كيسَ خيش، وأظنها فعلت التدبير ذاتَه مع صاحبي، ثم رمتني على سطح معدني محزّز. شعرتُ برجرجةٍ؛ وتناهى إليّ هديرُ محرّك، ثم تلقيت ضربةً على مؤخرة رأسي قبل أن أفقد وعيي.

أسوج

جنوب القطب الشمالي